

الصراع على السلطة وظاهرة العنف والاضغاثات فى عصر دولتى

سلاطىن الممالىك

د. نهلة أنىس محمد مصطفى (١)

تأتى أهمية الدراسات التاريخية باعتبارها ترتبط ارتباطا كلىا بأحداث المجتمع الذى يؤرخ له، ولعل التاريخ الاجتماعى يصحبنا معه لمعايشة الأحداث الاجتماعية التى تتفاعل مع العصر وتتأثر به وتأثر فيه تأثيرا ينسحب على أبناء هذا العصر ومدى مساهمتهم وتفاعلاتهم فى مجريات الأحداث التاريخية سواء أن كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

ولا غرو إذا أشرنا إلى مدى الارتباط الذى يجمع علم التاريخ ومناهجه بدراسة علم الاجتماع، وإن كان التاريخ هو العلم الذى نستقري من خلال سطوره عبر الماضى ومواعظه لنستفيد بها فى تلافى أخطاء الحاضر، فعلم الاجتماع من العلوم التى لا يمكن للمؤرخ أن يستغنى عن التعامل معها فى أثناء دراسته لمجتمع ما من العصور ودراسة تفاعلاته وإيدلوجياته، وحركة التطور التى يعايشها المجتمع، وذلك باعتبار أن الإنسان هو المحرك الأساسى والمباشر لما يحيط به من أحداث اجتماعية وسياسية ولذلك يظهر مدى الارتباط العميق ما بين علم الاجتماع والدراسات التاريخية والاجتماعية، وخاصة لما أثري به علم الاجتماع من دراسات شتى فى فروعته المختلفة، لاسيما علم الاجتماع السياسى الذى يرتبط اشد الارتباط بعلم التاريخ حيث يساهم عالم الاجتماع بشرح تفسيرات اجتماعية لمجريات الأحداث التاريخية^(١)

(١) مدرس التاريخ الإسلامى — كلية الدراسات الإنسانية " فرع النبات " — قسم التاريخ — جامعة الأزهر

(١) فتحية النبراوى: علم التاريخ دراسة فى مناهج البحث، ص ٢٦٦.

فيقوم بتحليلها وتمحيصها لإخراج نتيجة علمية تفسيرية للأحداث التاريخية. ولعلنا نلاحظ من خلال دراستنا التاريخية مدى ما يصل إليه النشاط الاقتصادي من ازدهار إذا ما صاحب ذلك استقرار سياسي وسيطرة من الإدارة الحاكمة والسلطان، ولعل هذه النتيجة تدلنا على مدى ما يعيشه المجتمع آنذاك من رخاء في ظل الاستقرار السياسي، والعكس كذلك صحيح إذا وجدنا ضعف وانحيار في نظام الحكم فلا يحدث ازدهار اقتصادي ولا رخاء معيشي في الحياة الاجتماعية بل تكثر الفتن والاضطرابات التي تؤثر تأثيرا سلبيا على حياة العامة في المجتمع.

ومن خلال دراستنا لعصر دولتي المماليك في مصر والشام وجدنا سليات كثيرة انعكس تأثيرها على مسيرة الحياة الاجتماعية داخل المجتمعات الإسلامية العربية في المماليك الإسلامية التي كانت تحت حكم الدولة المملوكية بعهديهما الأول والثاني.

ولعل أهم هذه السليات ما كانت تتعثر فيه هذه الدول كثيرا من جراء الصراع على السلطة وظاهرة العنف والقتل والاضطرابات التي كانت سمة من سمات هذا العصر، فأثرت تتبعها طوال فترة حكم المماليك وإبرازها في نقاط محددة حتى نتمكن من معرفة آثار هذه الظواهر التي أصبحت من سمات عصر المماليك أثرها على المجتمع الإسلامي العربي، ومدى ما تركت فيه من انطباعات وتأثيرات سلبا وإيجابا.

✽ سمات العصر المماليكي وتطوره.

وقبل دراسة هذه الظواهر والقاء الضوء عليها، يجب أن نتعرف بدايةً على العصر المماليكي وأهم سماته، والتي ظهرت لنا خلال الحقب الطويلة

التي عاشت فيها المجتمعات الإسلامية في مصر والشام والجزيرة * وإقليم الحجاز تحت حكم الدولة المملوكية بعهدية الأول (المماليك البحرية) والثاني المماليك الجراكسة (البرجية) ونقصد بعصر دولتي سلاطين المماليك الفترة التي حكم فيها سلاطين المماليك في مصر، منذ أقول نجم الدولة الأيوبية بعد اغتيال آخر سلاطينها المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م.

على يد الأمراء المماليك إلى أن أصبحت مصر ولاية عثمانية عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م^(١). وقد تتابع سلاطين المماليك على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون سيطروا خلالها على مجريات الأحداث لا في مصر باعتبارها قاعدة ملكهم والشام باعتبارها من أهم الأقاليم التابعة لهم فقط بل على تاريخ الشرق الأدنى كله خلال تلك الحقبة من العصور الوسطى.

ولعلنا إذا أردنا المرور سريعاً على سلاطين دولة المماليك فيجب أن نذكر أنهم من تلك الجنسيات المختلفة التي جاءت في أعداد كبيرة إلى مصر والشام عن طريق الاسترقاق سواء بالبيع والشراء أو كأسرى حروب كانت تموج بها تلك المنطقة في فترات مختلفة، وشملت أجناس هذه الطبقة أنواع كثيرة الأوربية والآسيوية، فكان منهم الترك والجركس والتتار والصنيين ومنهم من جلب من بلاد الصقالية والروم واليونان والأسبان والألمان، حملوا

* أقصد ببلاد الجزيرة: الجزيرة الفراتية من بلاد العراق والتي تقع ما بين نهري دجلة والفرات وتتصل ببلاد آرمينية وديار بكر من ناحية وإقليم العواصم ومدنه حلب ومنبج من ناحية أخرى في إقليم شمال الشام.

(١) ابن شاهين الملطي: نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين. ص ٦٤، ٦٥.
الإسحاقى: اختبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. ص ١٤٢، ١٤٣.

من ديارهم عن طريق تجار الرقيق لينشئوا في بلاد جديدة بتقاليد وتعاليم جديدة حتى دياناتهم أفلت مع ماضيهم ليشبوا ويترعرعوا في حضن الإسلام السمح الذي اكسبهم كثير من الخصال لم تكن موجودة مع أصولهم.

ولعل هذه الدولة الناشئة في مصر بعد نهاية الدولة الأيوبية والتي ظهر نفوذهم خلالها واضحا جليا ومنذ عهد السلطان الكامل محمد الأيوبي ٦١٥هـ/١٢١٨م. إلي أن كانت بطولتهم الباهرة في التصدي للقوى الصليبية في المنصورة بقيادة القديس لويس التاسع على عهد الصالح نجم الدين أيوب وقد كان اضطلاع المماليك بمهمة الدفاع عن الإسلام والمسلمين في المنصورة وتحت راية الدولة الأيوبية جعلهم يكونوا درعا حاميا للإسلام ومقدساته في مصر والشام والحجاز، وعندما ملكوا هذه البلاد وال إليهم حكمها لم يتهاونوا طرفة عين في دفع كل معتد آثم يدنس أرضها وحدودها فكانت وما زالت أصداء معاركهم الباهرة مع التتار والصليبيين في عين جالوت ومرج الصفر والمنصورة وفارسكور وانطاكية وعكا وغيرها^(١) دليلا على بطولاتهم التي أظهروها دفاعا عن الإسلام والدولة الإسلامية.

وبالنظر في أول مبدأ المماليك الأتراك التي جلبهم واستكثر منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة ٦٣٦هـ حيث أراد أن يثبت ملكه ويحميه بدماء جديدة ومماليك جدد فجلب المماليك الأتراك ونشأهم تنشئة

(١) بييرس الدودار: زبده الفكرة. ج ٩. ص ٦٩، ١٤٧، ٢٢٤.

-ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة. ج ٧ ص ٨٤، ٨٥.

-الشيخ عبد الله الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من

الملوك والسلاطين. ص ٩٨، ٩٩.

عسكرية صلبة، أسكنهم جزيرة الروضة لكي يأمن الناس شرهم بعد ما كثر شغبهم وعبتهم في شوارع القاهرة^(١) ولهذا أطلق عليهم المماليك البحرية لسكنائهم الجزيرة التي في بحر النيل وهؤلاء هم الذين كونوا لنا دولة المماليك الأولى والتي نسبت إلى نسبتهم البحرية، وملك منها خمس وعشرون سلطاناً منهم السلاطين الأقوياء الذين استطاعوا أن يسوسوا البلاد والعباد وسياسة حكيمة قوية علي كل الأصعدة الحربية والسياسية والاقتصادية. ولعل أهم هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، والسلطان المنصور قلاوون ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩هـ/١٣٠٩م في أثناء سلطنته الثالثة^(٢).

أما دولة المماليك الثانية (الجراكسة) كما يطلق عليهم وهي التي تقلد سلاطينها الحكم بعد الدولة الأولى وعندما ضعف سلاطينها واصبحوا ألعوبة في يد الأمراء الكبار في الدولة والمهيمنين على مقاليد الحكم فيها فاستطاع السلطان الظاهر برقوق ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. من اعتلاء كرسي السلطنة عندما خلع السلطان المنصور حاجي أمير حاج بن شعبان آخر سلاطين المماليك البحرية^(٣).

والجراكسة هم السلاطين من الأصل الجركسي وبلادهم بعض بلاد

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام. ص ٥

-محمود رزق سليم؛ عصر سلاطين المماليك ج ١. ص ١٣.

(٢) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ج ٧. ص ٩٤، ٣٤٤

عمر بن حبيب: تذكرة النبوة في أيام المنصور وبنية ج ٢. ص ١٩

الإسحاقى: المصدر السابق. ص ١٣٠، ١٣١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور. ج ١ القسم ٢. ص ٢٨٥.

الكرج (جورجيا الحالية) بين بحر قزوين والبحر الاسود وتمتد على الشاطئ الشرقي للبحر الاسود، والمعروف أن الجراكسة مشهورون بالشجاعة والفروسية فضلا عن الوسامة والجمال في نساءهم الامر الذي أوضحه لنا كثير من المؤرخين^(٤).

وأول من جلب المماليك الجراكسة حتى ينشئ بهم فرقا جديدة تكون درعا حاميا له ولأولاده وللمسلمين المنصور قلاوون أسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن هنا اتخذوا لقب البرجية^(١) ولقد أغدق عليهم المنصور قلاوون العطايا ونشأهم نشأة عسكرية وحبسهم في أبراج القلعة حتى لا تفسد نياتهم إذا ما اختلطوا بالمماليك الترك والأجناس الأخرى، ثم اكمل ولده الأشرف خليل ٦٨٩هـ/١٢٩٠م^(٢) من بعده تربية وتنشأة هذه الفرقة، التي أصبح لها فيما بعد ملك مصر والشام وملك من سلاطينهم أربع وعشرون سلطانا.

وإذا تحدثنا عن سمات عصر سلاطين المماليك فنجد هذا العصر مملوء بالمتناقضات سواء على صعيد الجانب المضيء فيه أو على الجانب المظلم، فقد استطاع المماليك ومن مصر أن يشكلوا قوة عسكرية اقتصادية

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٠٥.

ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٢٥٤.

ابراهيم علي طرخان: دولة المماليك الجراكسة، ص ٩.

(١) بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ١٥٧، ١٥٨.

سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٤٣.

(٢) ابن شاهين الملطي: المصدر السابق، ص ٨١.

كبيرة أثرت تأثيرا مباشرا علي أحداث العصور الوسطى ولعل كل القوى في منطقة الشرق الأدنى وفي أوربا واسيا كانوا يخطبون ود دولة سلاطين المماليك، وخاصة بعدما أحيا الظاهر بيبرس البندقداري الخلافة العباسية في مصر بعدما قضى عليها الطغاة المغول في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^(٣)، واصبح حكمهم للعالم الإسلامي يتصف بصفة الشرعية والتي استمدوها من احتضانهم للخلافة في قلب دولتهم الناشئة بالقاهرة.

ولا غرو إذا قلنا أن دولة سلاطين المماليك كانت آنذاك قوة سياسية عظمى ذات مكانه متفردة، إذ تبوّأت زعامة العالم الإسلامي سياسيا وثقافيا وحضاريا، هذا فضلا عن كونها القوة الكبرى في أفريقية في ذلك الوقت، ويعود ذلك إلى إن مصر كانت تملك معطيات الزعامة التي يمكن أن نجعلها قوة سياسية حربية يخش جانبها وكذلك باعتبارها المعبر الأساسي للطرق والمواصلات سواء طرق التجارة الدولية والتي كانت تتحكم في منافذها أو مسالك الحج الإسلامي والنصراني، هذا بالإضافة إلى مكانتها الاقتصادية والتي تكمن في سيطرتها الكاملة على تجارة البحر الأحمر والشرق حيث اصبح البحر الأحمر بحيرة إسلامية تسيطر عليها الأساطيل العربية المملوكية وتحرم على سفن غير المسلمين دخوله وذلك لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وأمنية^(١).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. حوادث سنة ٦٥٦هـ.

أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر. حوادث سنة ٦٥٦هـ. ج٣.

(١) نهلة أنيس محمد: العلاقات بين مصر والمماليك الأفريقية في عهد دولة المماليك

الجراكسة. رسالة دكتوارة غير منشورة. ص

هذا ويمكن القول أن مكانة مصر وأهميتها الدولية خلال عصر سلاطين المماليك في العصور الوسطى شملت جزءاً كبيراً من أرجاء العالم، فقد تمتعت مصر باحترام القوى السياسية المعاصرة لها في ذلك الوقت مثل ملوك آل عثمان والتتار وسلاطين الهند والسند وحكام البندقية وجنوه وغيرهم من حكام الجمهوريات الإيطالية.

ولقد تمتع عصر سلاطين المماليك بكثير من مظاهر القوة والحركة ليس في المجال السياسي فقط بل في المجال الحضاري والثقافي والمعماري فقد شهد عصر دولتي المماليك الأولى والثانية كثير من التقدم والازدهار نتيجة النشاط الاقتصادي الذي بلغ مداه عن طريق حركة التجارة العالمية حتى غدت مصر والشام قسبة التجارة العالمية^(٢) الأمر الذي تفسر من خلاله تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك بل وانسحب ذلك على كثير من مظاهر الأبهة والدعة والترف التي كان يعيش فيها سلاطين المماليك، وما زالت كثير من آثارهم التي تشكل تحفاً معمارية أقامها المماليك شاهدة عيان على ذلك العصر الذي أصبح بحق من العصور التي تتصف بالحركة والنشاط ففي الخارج حروب وفتح وانتصارات، وفي الداخل حياة مليئة بالحركة في كل المجالات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية.

ومن نافلة القول أن نذكر ما كان عليه سلاطين المماليك من اهتمام بالنواحي الأدبية والثقافية وعنايتهم بالآداب والفنون والحركة الثقافية، وتقديرهم للعلم والعلماء والفقهاء، وكان من أهم هؤلاء السلاطين الملك الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والناصر حسن بن محمد بن

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق. ص ٤

قلاوون في دولة المماليك البحرية، والظاهر برقوق والمؤيد شيخ المحمودي والظاهر جقمق والاشرف قايتباي والاشرف قانصوة الغوري في دولة المماليك الجراكسة، ولقد كانت مجالس العلم والأدب تنصب في قصورهم لمجالسة العلماء والأدباء والتزود من رحيق علمهم. ولا غرو إذا قلنا أن القاهرة خلال العصر المماليكي كانت تزخر بكثير من نوابغ العلم والفكر والدين والتاريخ والاجتماع وبذع في سمائها أسماء علماء وفقهاء مشهود لهم بالكفاءة والعلم في الفقه والتفسير واللغة، ولعل من أهم الأسماء التي لا يمكن لنا إغفالها الإمام العز بن عبد السلام، والإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام الجلال السيوطي، واسرة البلقيني التي خرجت لنا كثير من علماء الفقه والحديث والتفسير واللغة فضلا عن مؤسس علم الاجتماع العلامة العربي الإسلامي ابن خلدون الذي هبط مصر وعاش بين علمائها وأصبح من المقربين لسلطانها حتى توفي في عام ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م^(١).

وكذلك تألفت لنا المدرسة التاريخية خلال هذا العصر فكان من أهم مؤرخيها بدر الدين العيني، وتقي الدين أحمد بن علي المقرئ، أبو العباس القلقشندي، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، وقد شرف الأزهر الشريف بهذه النخبة الكبيرة من علمائه الإجلال الذين كانوا قادة للفكر والدين والسياسة والاجتماع في ذلك الوقت وخلال العهد المماليكي الثاني على وجه الدقة، والتي أصبحت فيه القاهرة وأزهرها الشريف مقصدا وكعبة يشد إليها طلاب العلم رحالهم لكي ينهلوا من معارفها ويتلقوا العلم على شيوخها وأساتذتها الإجلال.

وبالرغم من كل هذه النجاحات والازدهار الذي حدث في كثير من مجالات الحياة سواء السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا أنه برزت لنا سمات أخرى

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٧ ص ٧٦، ٧٧

كان لها تأثير سلبي على عصر سلاطين المماليك وبالتالي اثر ذلك السلب على مناحي حياة المجتمع الإسلامي الذي كان يعيش تحت سلطانهم، ولعلنا نشهد هذه المظاهر تتضح مع أول بداية لقيام دولة المماليك في مصر والشام وهو ما أحدثوه من اغتيال ابن أستاذهم وأميرهم السلطان المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما قتلوه جريحا حريقا غريبا في منطقة فراسكور في عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م^(٢) ولعل هذه الظاهرة استمرت كسمة من سمات العصر المماليكي بامتداد دولتيه، فكان النزاع على السلطنة وصراع السلطة والتنافس عليها، والمحاولات الدائبة منهم في أبعاد مبدأ وراثته العرش، وان كان هذا المبدأ ظهر واضحا خلال الدولة الأولى حيث استقر الحكم في أسرة الناصر محمد بن قلاوون وأولاده وأحفاده فترة كبيرة، وبالرغم من وثوب بعض الأمراء المماليك الأقوياء على عرش هؤلاء السلاطين الصغار من أبناء الناصر وأحفاده، مثل السلطان المنصور لاجين، والمظفر بيبرس الجاشنكير، ومن قبلهم كان المنصور قلاوون عندما استبعد أبناء السلطان الظاهر بيبرس وتولى هو مكانهم دست السلطة^(١).

غير أن مبدأ وراثته العرش استبعد بشكل واضح خلال دولة المماليك الثانية (البراكسة) فقد عمل هؤلاء المماليك على ابقاء الحكم مشاعا بين الأمراء المماليك، بحيث يتولاه القادر منهم على ملئه، وهكذا أصبح من المؤكد ونتيجة

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان. ج٨. ص ٧٨٢.

ابن شاهين الملطي: المصدر السابق. ص ٦٣.

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. ج٩. ص ١٥٥ تحقيق زبيدة عطا.

ابن كثير: البداية والنهاية. ص ٢٨٩، ٢٩٠.

لعدم الاستقرار الواضح في من يلي كرسي السلطنة ظهرت لنا سمة أخرى تعتبر من المظاهر السلبية في حكم دولة المماليك وهي كثرة الفتن والاضطرابات والثورات الداخلية التي اقتضتها محاولات الوثوب إلى كرسي السلطة ومع هذه الظواهر تظهر سلبات أخرى في المجتمع من فساد ورشوة وسلب ونهب يقاسي مرارتها عامة أهل المجتمعات الإسلامية في مصر والشام. وكل هذا أصبح يؤثر سلباً على معطيات الحياة فلا سبيل للاستقرار في إدارة هؤلاء المماليك المضطربون على السلطة، كل ذلك أوجد جواً يشوبه القلق وعدم الاستقرار وبخاصة في القاهرة وهي المركز والعاصمة والتي أضربت فيها نار هذه الفتن والاضطرابات والانقلابات، والتي لا تلبث أن تشترك معها مدن الشام الكبرى كعضو فاعل في هذا الخضم الهائل من الفتن وخاصة إذا لم يرض أمير كبير من المماليك في حلب أو دمشق بما حدث في القاهرة من تغيرات على كرسي السلطنة.

ولعلنا أردنا كمدخل لهذا البحث أن نوضح، ومن خلال هذه السمات والظواهر التي حددت ملامح دولة المماليك والتي عرضنا لها أهمية الدولة في مصر والشام ووجودهم كحماة لدولة الإسلام والمسلمين وكيف انهم وعلى الصعيد الآخر قد شغلوا في كثير من الأوقات بخلافاتهم التي ظهرت في صورة فتن وقلق أثرت على الوجود المملوكي في العصور الوسطى، ولعل هذا وضح في مدى الخلافات التي كانت عليها الدولة المملوكية على عهد الأشرف قانصوه الغوري الأمر الذي حدى بأبناء عثمان في التفكير الجدي في السيطرة على ما بيد المماليك في مصر والشام من أقاليم فكان الانتهاء الحتمي لهذه الدولة والذي صاحبه عدة عوامل مساعدة اقتصادية وسياسية.

الصراع على السلطة:

يأتي الصراع على السلطة في مقدمة المظاهر السلبيه التي سادت عصر سلاطين المماليك ولعل الباحث في تاريخ الدولة المملوكية وكما أشرنا يلاحظ بداية عصر المماليك بالقتل والخيانة عندما قتل توران شاه في فراسكور، واصبح السمة الظاهرة هي اعتلاء سلاطين المماليك لكرسي السلطنة على جثث السلاطين السابقين، واصبح هناك عرف سائد بينهم أن الأمير القاتل يحل محل السلطان المقتول، وإذا تتبعنا سيرة سلاطين المماليك نرى أحوال وأمور يشيب لها الولدان من كثرة بشاعتها ورغبة مرتكبيها في خلوص كرسي السلطنة إليه والسيطرة الفعلية على البلاد، ومع ذلك لا يلبث هذا السلطان إلا ويجد من يثور عليه ويحاول التخلص منه بابشع الطرق كذلك، أما مبدأ وراثه العرش فهو المبدأ الذي لم يقره مطلقا الأمراء المماليك بل تركوا حق تولي السلطة للأمراء القادرين على الوصول إلي هذه المكانه بقوتهم وبما يملكونه من ممالك صغار يكونوا قوة دافعة لهم في مساعيهم للوصول إلي هذا المنصب، ونسوق هنا بعض الأمثلة التي اسهبت لنا المصادر في ذكرها مع ذكر ترجمة لكل سلطان مملوكي مات مقتولا أو مسموما، ولقد استفدنا خاصة من المؤرخين الذين كانوا شهود عيان لهذه الأحداث ومعاصرين لها. وسطروا لنا الصراع على السلطة بكل دقة وخاصة الفتن التي أثرت رغبة في السلطة والسلطان.

١: دولة المماليك الأولى (البحرية).

ولعلنا هنا نبدأ مع بداية الدولة المملوكية التركية، وعندما غدا الأمراء المماليك

أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في البلاد، وغدت شجر الدر سلطنة على البلاد^(١) أوضح لنا المؤرخون كيف أن المسلمين أحسوا بالحرَج من قيام امرأة في حكمهم وهو الأمر الذي لم يعتادونه بعد فلا عرف ولا شرع أقر ذلك ولا يذكر امرأة في حكم المسلمين^(٢) حتى شجر الدر نفسها أحست بهذا وشعرت بحرج موقفها فحرصت على ألا يبرز اسمها في الخطبة فكان يخطب لها على المنابر "اللهم وادم سلطان السِّر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين والدة الملك الخليل"، ونقش اسمها على النقود بصيغة "المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين"^(٣)، غير أن هذا التحايل منها لم يمنع من تزمزج رجال الدولة والأمراء وخاصة الخلفية المستعصم بالله العباس، وكذلك تآثر الملوك والأمراء الأيوبيين في بلاد الشام واعتبروا ذلك خروج على السلطنة الأيوبية واجتمعوا في الشام واتفقوا على مهاجمة مصر هجوما مسلحا^(٤) وتشاور المماليك في أمرهم واجمعوا رأيهم على توليه المعز أيبك التركماني* سلطانا على البلاد، فتنازلت له شجر الدر عن السلطنة بعد

(١) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية. ص ٣٧، ٣٨.

ابن العميد: أخبار الأيوبيين. ص ٤٣.

سعيد عاشور: المصدر السابق. ص ١٨.

(٢) المقرئزي: السلوك. ج ١. ص ٣٦٢

(١) بدر الدين العيني: عقد الحمان. حوادث، تراجم (١) ص ٢٨

(٢) المقرئزي: المصدر السابق. ج ١. ص ٣٦٦، ٣٦٧.

العيني: المصدر السابق. ص ٣٤.

* المعز أيبك التركماني: هو عز الدين أيبك أحد مماليك الصالح أيوب ترقى في خدمة السلطان الصالح أيوب وخاصة بعد عتقه وأصبح من الأمراء وتولى وظيفة الجاشنكير،

أن خلعت نفسها وتزوجت منه ودام ملكها ثمانون يوماً^(٣) واشركوا معه طفلاً من بني أيوب وهو الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين، ولم يلبث المعز أيبك أن خلع الأشرف موسى وتقلد السلطنة بمفرده في عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م^(٤) واستطاع بذلك المعز أيبك أن يسيطر على الحكم وخاصة بعد أن تخلص من الأمراء المناوئين له في الداخل وصفا له الحكم، غير أنه في هذه الفترة كان قد تغير على زوجته شجر الدر بعدما امسك بزمام الأمور واحسن بعدم حاجته لها، وكانت تمن دائماً عليه بأنها هي التي اجلسته على كرسي السلطنة، فضلاً عن أنه بلغها خبر رسالته إلي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته، فاعز ذلك صدرها عليه وأنه ما حفظ جميلها فضلاً عن تغيره عليها، وعدم اشراكها معه في أمور الملك وهي التي عاشت ثمانون يوماً يخطب باسمها على المنابر وتنقش رسومها على السكة وقد ذاقَت حلاوة السلطنة وظنت في نفسها عندما تنازلت له عن الحكم أن الحل والعقد سيكون بيدها، فعقدت أمرها على التخلص منه، وكان قد خرج للعب الكرة، فلما عاد ورتبت له الحمام ومعها بعض خدامها ومنهم سنجر الجوجري

وهو الأمير الذي يقوم بتذوق الطعام قبل السلطان خوفاً من دس السم له، وترقى حتى وصل إلي رتبة أنابك العساكر وهي من أعلى المناصب في الدولة التركية.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠.

المقريزي: المصدر السابق. ص ٣٩٧، ٣٦٨.

ابن اياس: بدائع الزهور. ج ١. القسم (١) ص ٩٥.

(٣) بدر الدين العيني: المصدر السابق. حوادث وتراجم (١) ص ٥٤.

(٤) العيني: المصدر السابق. ص ٥٣.

ونصر العزيزي فدخلوا عليه وقتلوه وهو في الحمام، وشاع الخبر بمقتله في بكرة نهار الاربعاء^(١) ولما ظهر الخبر بمقتله تكاثر عليها مماليك المعز ايبك وقتلوا والقوها على مزبلة ثلاثة أيام خارج البرج الأحمر غير مستورة العورة بعد "الحجاب المنيع والمقام الرفيع"^(٢) ثم حملت ودفنت في تربة كانت أمرت ببنائها بجوار المشهد النفيس، ويقال أن من قتلها كانت والددة نور الدين على بن ايبك، وتذكر بعض المصادر أن المظفر قطز هو الذي عمل على قتلها وكان اتابك العساكر علي عهد نور الدين علي بن ايبك، وسمروا الخدام الذين اشتركوا معها في مقتله^(٣). غير أن نفس الصورة تكررت فلم يدم الزمان طويلا إلا وجاءنا في أحداث عام (٦٥٩هـ/١٢٦١م)^(٤) من خبر غدر المماليك البحرية بالسلطان الملك المظفر قطز وكان ذلك

على اثر انتصاراته الباهرة التي احرزها على التتار في موقعة عين جالوت في عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م^(٥) وبعد توحيده للجهة الإسلامية في مصر والشام، وإخضاع بلاد الشام أراد الرجوع للقاهرة التي تزينت وصارت في أبهى حللها

(١) النويري: المصدر السابق: ج٢٩، ص٤٥٧.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق: ج٧، ص١٧٨ حوادث سنة ٦٥٥.

بيبرس الدوادار: المصدر السابق: ص٣٩.

(٣) العيني: عقد الجمان. حوادث وتراجم (١) ص ١٤١، ١٦٥.

ابن شاهين المنطى: المصدر السابق: ص٦٧، ٦٩.

(٤) ابن العميد: المصدر السابق: ص٥٥.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق: ج٧، ص٢٠٦.

ابن تغري بردى: النجوم. ج٧، ص٧٩.

بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية. ص٤٣، ٤٤.

استقبالا للبطل المنتصر ولكن جرت الأمور على غير ما تشتهى الأيام، ففي أثناء سفر السلطان المظفر قطز من دمشق إلى مصر "وإلي أن وصل إلي القصير * وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة، ورحلت العساكر إلي ناحية الصالحية، وضرب الدهليز السلطاني" وظهر المظفر رغبته في الصيد، فخرج في صحبة بعض الأمراء لتلك النواحي وثارت ارنب فساق الملك المظفر عليها، وساق هؤلاء المؤتمرون على قتله معه، فلما بعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري، وشفع عنده شفاعته في إنسان فقبلها السلطان، فاهوى عليه بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل الأمير انص عليه وبادره الأمير بكتوت بالسيف ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتل ثم حملوا على باقي العسكر وهم شاهرين سيوفهم والاتابك * على باب الدهليز فاخبروه بما فعلوا، "فقال من قتله منكم قال بيبرس أنا فقال ياخوند،

* نزله القصير: وردت كذلك في الكتاب السلوك للمقريزي والخطط جـ ٣ ص ٣٨٢

ومنزلة القصير هي القرية التي تعرف باسم الجعافرة، وهي بين الصالحية وقرية الغزالي من مركز فاقوس محافظة الشرقية.

ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٧. ص ٢٠٩.

ابن تغري يردى: النجوم جـ ٧. ص ٨٣ هامش الصفحة.

* الاتابك: كان أتابك العساكر على عهد السلطان المظفر قطز هو فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو أقطاي بن عبد الله النجمي الصالحى انتقل إلي ملك الملك الصالح وكان في ملك نجم الدين محمد بن يمن ، ولذلك أطلق عليه اسم المستعرب.

ابن تغري يردى: النجوم. جـ ٧. ص ٤٣، ٨٤.

اجلس على مرتبة السلطان^(١).

وبتحليل كل النصوص التي وردت لنا في خبر مقتل السلطان الملك المظفر قطز نجد أن الرغبة في الحكم والسلطة كانت وراء تلك المؤامرة التي حاكها الأمراء المماليك البحرية، وخاصة الأمير بيبرس البندقداري، الذي ابلى معه بلاءا حسنا في قتال التتار بعد انجلاء الموقعة بنصر المسلمين، فطلب منه بيبرس ولاية حلب والتي سبق السلطان ومناه بها، إلا أنه عاد وتكرر لوعده ويذكر لنا د. سعيد عاشور كيف أن قطز كان "قصير النظر في ذلك ولو أنه الهى بيبرس بحلب لكان آمن شره"^(٢) غير أن أمر الله سبحانه وتعالى كان قد نفذ، فضلا عما كان في حفيظة المماليك البحرية من قتل زعيمهم فارس الدين اقطاي زمن الملك عز الدين ايبك وعلى هذا كان البحرية يحملون قطز اصر مقتل أستاذهم، فلما تحدث في ذلك بيبرس البندقداري وجد اذانا صاغية له، فما برح القوم الصالحية إلا وبيبرس القاتل سلطانا مقام السلطان قطز القتييل.

وهكذا كان صراع السلطة سببا مباشرا في مقتل فارس الإسلام والذي عصم العالم الإسلامي من شر مستطير كان يدق أبوابه وكسر الشر في موقعة عين جالوت بهزيمة التتار المنكرة على يد هذا السلطان الذي اعز به الله سبحانه وتعالى الإسلام والمسلمين واستقبلت القاهرة بدلا منه السلطان الظاهر

(١) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية. ص ٤٥.

زبدة الفكرة. ج ٩. ص ٧٣، ٧٤.

ابن كثير: المصدر السابق ج ٧. ص ٢٩.

العيني: عقد الجمان حوادث وتراجم سنة ٦٥٨.

(٢) العصر المماليكي في مصر والشام. ص ٤٤.

بيبرس، الذي يستمر ملكه حوالي ثمانية عشر عاما، نخبوا فيها لفترة نار الفتن والأحقاد. حتى تمكن السلطان المنصور قلاوون الصالحى أن يقلل أبناء السلطان الظاهر بيبرس عن السلطنة بعد خلع السلطان السعيد بركه خان في عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م^(١) وولى مكانه أخيه العادل سلامش وعمره انئذ سبع سنوات، ثم عندما هدئت الأمور والفتن من جراء خلع السعيد بركه. اخرج العادل سلامش عن البيعه واتفق على بيعه المنصور قلاوون الصالحى وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه^(٢) واستمر الحكم في بيت قلاوون إلى آخر عهد دولة المماليك الأولى (البحرية) والتي حدث في أثنائها كثير من الفتن والاضطرابات والقتل نزاعا على السلطة وتولي كرسي السلطنة وراح ضحيتها من أبناء المنصور قلاوون نفسه وأحفاد الناصر محمد ابن قلاوون على ما سيأتي ذكره.

ففي حوادث ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، وسلطان البلاد الملك الاشرف خليل قاهر الصليبيين، والذي فتح آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام واخرج آخر فلوهم من بلاد الإسلام، أراد السلطان الخروج للصيد فقصد الإسكندرية والحمامات الغربية، وخرج قبله وزيره شمس الدين بن السلعوس، حتى يجهز لمقدمة مدينة الثغر ويحصل الاصناف والامتعة والأموال، فوجد بالاسكندرية نواب الأمير بدر الدين بيدرا قد استولوا على المتاجر "وادخروا منها ما ليس

(١) ابن كثير: المصدر السابق: ج٧. ص ٢٨٧ وما بعدها.

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة. ج٩. ص ١٥٣.

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق: ج٩. ص ١٥٥.

ابن تغري بردى: المصدر السابق: ج٧. ص ٢٩٢.

النويري: المصدر السابق: ج٣١. ص ٧.

من حواصل السلطان^(١) فارسل يعلم السلطان بذلك فاستشاط غضبا واستدعى من فوره نائب السلطنة بدر الدين بيدرا بحضور الخاصكية * والأمراء واغلظ له القول وتوعده بأشد الوعيد فتلف مع بيدرا حتى يخرج من امامه، وهو مضمّر غير ما يظهر وجمع إليه اعوانه وهم خوشداشيتة * أطلعهم على ما كان من السلطان واسر لهم ما في نفسه تجاهه وكان ممن وافقه الأمير حسام الدين لاجيه، والأمير قراستقر والأمير سيف الدين بهادر. وشمس الدين أق سنقر الحسامي، وسيف الدين قوغيه، ومحمد الخواجا وطرنتاي الساقى، والطنبغا راس نوبة،^(٢) واخبر الخاصكية بعد ذلك الأمير بدر الدين بيدرا ببعض ما قاله السلطان في حقه، وكان بيدرا وقد استمال هؤلاء الخاصكية فاشاروا عليه بأخذ الحيطه من ناحية السلطان، وخرج السلطان في ركب صغير من خواصه ليصطاد بعدما نزل ناحية تروجة * من أعمال البحيرة،

(١) العيني: المصدر السابق. ٣ حوادث وتراجم. ص ٢٠١

ابن شاهين الملطي: المصدر السابق: ص ٨١.

* الخاصكية: هم الذين يلزمون السلطان في خلوانه، ويسوقون المحمل الشريف السلطاني.

النويري: المصدر السابق: ج ٣٠ ص ٢٤٠ التعريف بالمصطلحات المتينة تحقيق محمد عبد الهادي شعيره

* خوشداشيتة: جمع خدشاش وهو زميل في الخدمة والخشواشيه هي رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا بمالك عند أستاذ أو سيد واحد.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٣. ص ٤٢ التعريف بمصطلحات المتن تحقيق محمد عبد الهادي شعيره.

* تروجة: من بلاد المصرية المندثرة، ومكانها اليوم كوم تروجة بأراضي زاوية صقر

فاخير الخاصكية بيدرا ومن معه أن السلطان قد ركب منفردا، فشدوا رحالهم وراءه وكان بينهم وبين السلطان مخاضة فخاضوها، واقبلوا عليه فاحس الغدر في عيونهم وظهرت منهم علامات الغدر فضربه بدر الدين بيدرا ضربه جرحه بها ثم ضربه لاجين فقطع يده ف عاجلة بالثانية فهدل كتفه ثم أجهز عليه باقي الأمراء بسيوفهم وبقي السلطان في موضعه ثلاث أيام حتى جاء الأمير عز الدين أيدير متولي تروجة أهلها وحملوه وغسل وكفن^(٣) ووضعوه في بيت المال إلي أن حضر من القاهرة الأمير سيف الدين كوجبا الناصري فنقلة في تابوته إلي تربته التي أنشأها الأشرف بجوار مشهد السيدة نفيسة^(١).

أما ما كان من أمر الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فقد اجتمع الأمراء المؤتمرين معه واتفقوا على أن تكون السلطنة لبيدرا ولقبوه بالملك القاهر أرادوا أن يعودوا مسرعين إلي القلعة حتى يملكوها ويتم لهم الأمر، وما لبث أن علم الأمراء خاصة الأشرف خليل بالخبر وهم ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وسيف الدين برلغي وحسام الدين الاستدار، والأمير بدر الدين بكتوت العلاني والمماليك السلطانية الذين خرجوا للصيد مع السلطان، فركبوا

بمركز ابو المطامير . محافظة البحيرة.

محمد رمزي: القاموس الجغرافي. القسم الأول. ص ١٩٠.

(٣) ابو الفدا: المصدر السابق: ج٤ ص ٢٩، ٣٠.

النويري: نهاية الأرب ج٣١ ص ٢٦١.

(١)النويري: المصدر السابق ج٣١ ص ٢٦٢.

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ج٩ ص ٢٧٦. تحقيق زبيدة عطا.

مسرعين ليلحقوا بقتلة السلطان، والتقى الجمعان واقتتلا قتالا كبيرا وساد فساد كثير وخاصة بعدما انضم العربان إلي بيدرا غير أن ممالك السلطان حملوا عليهم حملة قوية واتخنوهم جرحا وقتلا فهرب من كان مع بيدرا ولم يبق معه إلا نفر يسير هاجمهم الأمراء وقتلوا بيدرا وعندما خر صريعا وثب عليه يكتمر السلحدار سريعا "وبقر بطنه واستخرج كبده واخذ منه فلذة وابتلعها حنقا عليه، وحز راسه وحمل إلي المدينة على رمح^(٢).

ولعلنا إذا نظرنا إلي النصوص التي وردت لنا في خبر مقتل السلطان الاشرف خليل لوجدنا حق الأمراء الذين تأمروا على السلطان لشيء في نفس كل واحد منهم مما اثار حفيظتهم عليه، فبدر الدين بيدرا خشي من باس السلطان بعد تعنيفه أمام الأمراء المماليك والخاصكية وكان يشغل منصب نائب السلطنة، وهي ثاني المماليك الوظائف السلطانية في دولة المماليك، أما الأمير حسام الدين لاجين فكان في نفسه شيء من السلطان لعزله له عن نيابة السلطنة بدمشق في إقليم الشام واعتقله مرة بعد أخرى، والأمير الاشرف اقسنقر كان السلطان قد عزله عن نيابة حلب^(٣) وانضم إليهم كذلك بعض الأمراء الموتورين من تقريب السلطان لخاصته من المماليك دونهم، فكل هذه الاحقاد والضغائن التي تحشرت في قلوب هؤلاء الأمراء كان مؤداها العزم على قتل السلطان والتخلص منه والوثوب الفوري من بدر الدين بيدرا على

(٢) النويري: المصدر السابق. ج٣١ ص٢٦٣.

بيبرس الدودار: المصدر السابق ج٩ ص٢٠٦.

العيني: المصدر السابق ص٢١٤.

(٣) ابو الفدا: المصدر السابق ج٤ ص٣٠.

ابن اياس: النجوم ج٦ القسم (١) ص٣٧٦، ٣٧٧.

كرسي السلطنة وتلقيبة بالملك القاهر إلي أن قهره الموت ومات قتيلا على يد الأمراء خاصة السلطان الاشرف خليل وما نال مناله من السلطنة والسلطة بل أعجزه الموت عن ذلك.

هذا وتولى السلطنة بعد مقتل كل من الاشرف خليل وبدر الدين بيدرا السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الأولى في الفترة من (٦٩٣ - ٦٩٤هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٤م)^(١)

وكان انذاك في التاسعة من عمره، فما لبث أن احتدم الصراع بين نائب السلطنة والامير سيف الدين كتبغا والوزير سنجر الشجاعي فقد كان لكل منهم مطامع في اعتلاء كرسي السلطنة وملك مصر والشام، وانتهى الأمر بمقتل الشجاعي بعد محاصرته في القلعة وساعد كتبغا في قتال الأمير حسام الدين لاجين والذي كان مختفيا اثر حادث مقتل الاشرف خليل وما زال بالأمير كتبغا حتى حسن له خلع الناصر وتسلطن مقامه. وانتهت بذلك السلطنة الأولى للسلطان الناصر، بعد أن تم خلعه أعلن زين الدين كتبغا سلطانا على البلاد والذي لم يدم سلطانه طويلا فقد انتفض عليه من حسن له السلطنة الأمير حسام الدين لاجين والذي ظن في نفسه انه أحق بالسلطة باعتباره من قتلة السلطان الاشرف، فضلا عما أثاره مماليك كتبغا من فتن وشغب اقلقت عامة الشعب وكره الناس ملكه وتولى لاجين السلطة بعدما اشترط عليه الأمراء إلا ينفرد برأيه دونهم "وإلا يبسط يد أحد مماليكه فيهم"^(٢) وحلف لهم على ما

(١) أبو الفدا: المصدر السابق. ج٤ ص ٣١.

العيني: المصدر السابق. حوادث وتراجم. ص ٢٢٢.

(٢) بيبرس الداودار: المصدر السابق. ج٩ ص ٢٩٥.

اشترطوه عليه، ثم ما لبث إلا أن تنكر لوعوده بعدها واستقر له الأمر واخذ يطيح بهؤلاء الأمراء ويعزلهم ويقصيهم عن الديوان، بل لكي ينفرد بالأمر أكثر اخرج الملك الناصر محمد ووالدته إلي الكرك^(٢) أطلق يد مملوكه سيف الدين منكوتر في المملكة بعد تعيينه نائبا للسلطة وأمر بعض المماليك خاصته، واخذ يضيق على الأمراء فاشتد حنقهم عليه وعلى نائبه ودبروا مؤامرة أدت إلي مقتل حسام الدين لاجين ونائبه منكوتر في (ربيع الآخر عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م)^(١) هذا وكان هناك سببا مباشرا لدى أمراء المماليك في التخلص من المنصور لاجين، فكان ممالك الاشرف خليل يتحينون الفرصة للأخذ بثار أستاذهم وتزعّم الأمير كرجي مقدم المماليك البرجية المؤامرة ونجحوا في القضاء عليه^(٢) وتجددت مرة أخرى مشكلة شغل كرسي السلطنة فاعيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مدة ولايته عام ٦٩٨ : ٧٠٨هـ فاستقدم من الكرك وتولي السلطة وتولى الأمير سيف الدين سلا رنيابة السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير الاستدارية، وضيق كل من سلا ر وبيبرس الجاشنكير على الناصر محمد نظرا لصغر سنة وعدم درايته بأمور الحكم، وقرروا له راتب شهري كان لا يكفي حاجته لينفق منه على ضرورات المعيشة وحاول السلطان التخلص منهم إلا أنهم علموا نيته وعزمه فضيقوا عليه أكثر وحاصروه بالقلعة فاضطر إلي ترك البلاد متظاهرا بالسفر إلي

(٣) ابوا الفدا: المصدر السابق. ج٤ ص٣٣ وما بعدها.

بيبرس الداودار: المصدر السابق. ج٩ ص ٢٩٥.

(١) ابن كثير: المصدر السابق. ج٧ ص٣٦٥.

ابوا الفدا: المصدر السابق. ج٤ ص ٣٩.

(٢) العيني: عقد الحجان. حوادث وتراجم (٣) ص ٤٣١.

الحج ونزل الكرك مرة أخرى في شوال ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م^(٣). وهناك عقد عزمه على عدم العودة مرة أخرى إلى القاهرة، وعندما عاد الأمراء صحبة السلطان في الحج إلى القاهرة اخبروا الأمراء بعزم السلطان في عدم العودة فاجتمع كبار الأمراء ليقروا من يلي السلطنة غصبا والسلطان حي يرزق معقود له بيعة، وتسلطن الأمير بيبرس الجاشنكير، والتي لم تدم له طويلا ايضا فكان قوي السلطان الناصر عن حوله وعزم علي أن يستولى على ملكه وعرشه ثانية من يد هؤلاء الطامعين في السلطة واثاروا حولها النزاعات وحاكوا المؤامرات والانتقالات طمعا في الوصول إلى دست السلطنة والذي لا يستطيعوا ملئة فترة طويلة لتعود الكرة إلى سابق عهدها.

وفي سلطنة بيبرس الجاشنكير لم تطعه نيابات الشام ولم يقطعوا الخطبة للسلطان الناصر والتفت العساكر الشامية حول الناصر محمد أكدوا له حسن طاعتهم واخلصهم فخرج من الكرك صحبتهم وذهب إلى دمشق، فهرب منها نائب سلطنه بيبرس الجاشنكير ودخلها السلطان، وسارت إليه جيوش حماه بقيادة الأمير قبجق والأمير استدمر وكانا في خدمة السلطان "حتى تكاملت العساكر السلطانية"^(١) وعقد العزم علي الخروج إلى القاهرة واسترداد ملكه وملك آبائه وذلك في عام ٧٠٨هـ، وعلم الجاشنكير بقدوم الناصر فهرب بعد أن حمل معه الأموال والخزائن إلى الصعيد، وعندما استقر الناصر في مصر وجلس في كرسي القلعة ارسل في طلب الجاشنكير، وكان

(٣) ابو الفدا: المصدر السابق ج٤ ص ٥٨، ٥٩.

ابن حسيب: تذكرة النبوة في ايام المقصور وبنية. ج٢ ص ١٨.

(١) ابو الفدا: المصدر السابق. ج٢ ص ٥٨، ٥٩

العامّة قد تبعوه بعد سماع خبر هروبه، وكان آخر العهد به أن قُتل ودفن بالقرافة^(٢).

وبعد فقد استمر الناصر محمد في السلطنة من عام (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠م) على أن نبدأ بعد وفاته مرحلة هامة من مراحل تاريخ سلاطين المماليك تتجلى فيها ظاهرة قتل السلاطين أو عزلهم كوسيلة للوصول إلي الحكم، وان كان أمراء المماليك يبقون علي هؤلاء السلاطين مدة لا تزيد عن شهور أو سنة حتى يحكيوا مؤامراتهم ودسائسهم فيعزلوهم ويسجنوهم أو ينفوهم أو يقتلوهم ليتفردوا بالسلطة ومن ثم يبحثوا عن سلطان طفل أو ضعيف حتى لا يغلب نفوذه نفوذهم، ويمكن أن نلاحظ في المرحلة التي أعقبت وفاة السلطان الناصر محمد والتي اصطُلح على تسميتها عهد أبناء واحفاد الناصر محمد وهي التي استمرت حتى افول نجم دولة المماليك الأولى "البحرية" وهذه المرحلة التي يظهر فيها مدى الدسائس والمؤامرات التي حيكت للوصول إلي كرسي السلطنة حتى كان السلاطين لا يتورعوا في قتل أشقائهم وصولا إلي السلطنة.

وترك لنا الناصر محمد ثمانية أبناء - عدا من مات في حياته - تعاقبوا على الحكم من بعده واستمر حكمهم إحدى وعشرين سنة، أما أحفاده فبلغوا أربعة سلاطين، واستمر حكمهم تقريبا إحدى وعشرين سنة، وبالنظر في حكم هؤلاء السلاطين وتعاقبهم على الحكم نجد سمات خاصة ظهرت بهذه الفترة فقد استبد الاتابكة ونواب السلطنة بالحكم والرأي والمشورة وإذا ما حاول السلطان الخروج عن طاعتهم وإعمال رؤية في أمور الحكم والرعية

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ج٧ ص ٤٣٥

ابن حبيب: المصدر السابق ج٢ ص ١٩

انقلبوا عليه وتخلصوا منه في اقرب فرصة تتاح لهم.

وأول السلاطين بعد الناصر محمد ابنه الملك المنصور أبو بكر (٧٤١هـ/١٣٤٠م) وعمره نحو عشرين سنة إلا أن ملكه لم يدم طويلا فقد حاول أن يتخلص من الأمير قوصون الاتابك، وعلم قوصون بما يغمره السلطان في حقه، فاجتمع بالأمير أيد غمس أمير أخور كبير* وجماعة من الأمراء واتفق الجميع على عزله وطلع الأمير قوصون إلي القلعة وقبض علي الملك المنصور أبو بكر، وأرسله منفيا إلي قوص وكانت مدة سلطنته حوالي ثلاث شهور، وال امرة في قوص أن دس عيله الأمير قوصون متولي ناحية قوص وامر بقتل الملك المنصور، وقتل خنقا في السجن ثم قطع رأسه إلي الأمير قوصون الاتابك^(١) وجاءوا بالسلطان كجك وتقلد دست السلطنة بعد خنق اخية، وله من العمر نحو سبع سنين، تولى سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م وخلع الخلع والاحسانات على الأمير قوصون وقرره نائبا للسلطنة وذلك بجوار اتاييكة العساكر وعلى هذا اضطربت أحوال المملكة والرعية بعدما اصبح المتصرف فيها الأمير قوصون صار كل يوم يرسل في طلب القبض على بعض أمراء الممالك وزاد أن أمر بالقبض على الطنبغا الماريني نائب السلطنة بالشام والقبض على طشتمر حمص اخضر نائب حلب ولم ترضى

* امير آخور كبير: وظيفة يقوم صاحبها بالاشراف على اسطبل السلطان او الامير ورعايه لديه من خيل وحيوانات ويتخذ صفه كبير إذا اخذ الاشراف علي الاسطبلات السلطانية.

المقريزي: السلوك ج١ ص ٤٣٨ حاشية ٣ من المحقق محمد مصطفى زيادة.

(١)ابوا الفدا: المختصر ج١ ص ١٣٥.

ابن اياس: المصدر السابق ج١ القسم الاول ص (٩).

هذه الأمور الأمراء فثاروا على قوصون وخلعوا السلطان كجك من السلطة التي مكث فيها خمس اشهر وعشرة أيام " لم يكن له فيها أمر ولا نهى^(١)، وانتهى به المال إلي الموت في عهد اخيه الملك الكامل شعبان بعدما خرج الى سرياقوس مستقيما بها فارسى أخاه من دس السم عليه وقتلوه فى فراشه عام ٧٤٦ / ١٣٤٥ م^(٢).

وتسلطن بعده أخوه الملك الناصر أحمد أحضروه من الكرك وبويع وما لبث بالسلطنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م) وكان اكبر اخوته سنا وظن الناس والرعية فيه حسنا وان خيب ظنهم واتى أفعالا استشفعها الأمراء فقبض على سبعة أمراء كبار ونفاهم الى الاسكندرية ثم أمر بقتلهم جميعا وحاول أن يقبض على الأمير طشتمر حمص اخضر والذي أقره فى نيابة السلطة فثار حفيظة الأمراء عليه وخاصة بعد أن خرج إلى الكرك ورفض العودة الى القاهرة فثار عساكر الشام عليه وحاصروه فى الكرك فخلع من السلطنة^(١).

وتولى دست السلطنة الملك الصالح إسماعيل فى عام ٧٤٣هـ- ١٣٤٢م وشغل الملك الصالح إسماعيل بقتال أخيه الناصر أحمد حتى سلم أحمد فى النهاية وقبض عليه وقتله واستمر سلطانه ثلاث سنوات تقريبا ومرض ومات فى سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م^(٣).

وبويع بعده للسلطنة الملك الكامل زين الدين شعبان فى سنة ٧٤٦ هـ

(١) المقرئى : السلوك - ج ١ ص ٥٩٣

ابن اياس : المصدر السابق ج ١ القسم الاول ص ٤٥٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٠ ص ٤٨ ، ٤٩

(٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ١ القسم ١ ص ٥٦ ، ٥٧

١٣٤٥م . فكان هذا السلطان سئ السيرة بين الأمراء فاشتبك مع الأمراء فى موقعة ناحية قبة الهواء انهزم فيها السلطان وفر هاربا بعد أن انفض من حوله مماليكه واتفق رأى الأمراء على تولية الملك المظفر حاجى والذى أخرج من السجن بعد أن ادوعه به أخاه الكامل شعبان هو واخيه الأمير حسين وقبض فيما بعد على الكامل شعبان وسجن وقتل فى السجن بأمر من أخيه السلطان المظفر حاجى (٣).

وكان السلطان حاجى بن الناصر محمد لم يبلغ العشرين من عمره بعد، وابتدأ أمره بالقبض على بعض الأمراء وسجنهم، ثم انشغل عن الرعية بتربية الحمام واللعب أهمل شئون الرعية والملك فساد والفساد واضطربت أحوال البلاد وظلم العباد والاهلين، فشاوره الأمراء بواسطة الأمير شيخو مقدم الف أن يتنازل عن السلطنة فقال "كيف اتنازل ما عندى لهم إلا حد السيف"^(٤) . فدارت رحى معركة بين الفريقين انفض فيها الممالك السلطانية من حوله وتكاثر عليه العسكر واسروه ، فذهبوا به الى الأمير اقطاي نائب السلطنة إلا انه قال " أعوذ بالله أن اقتل أستاذي "^(٥) فجاءوا به الى الأمير ببيغا اروس الذى قبض عليه وتوجه به الى تربة عند الباب المحروق مخنقة فى تلك التربة ودفنه بها (٦).

وتسلطن بعده من أبناء الناصر محمد الملك الناصر حسن ٧٤٨ / ٧٥٢ هـ بويع الناصر وعمره يناهز الحادية عشر وهى سلطنته الأولى

(٤) (ابن اياس : المصدر السابق ج ١ القسم الاول ص ٥١٧

(٥) (ابن اياس : المصدر السابق ج ١ القسم الاول ص ٥١٩

ابن شاهين الملطى : المصدر السابق ص ١٠١

(٦) (ابن اياس : المصدر السابق: ج ١ القسم ١ ص ٥١٩

واستمر في الحكم ثلاث سنوات تقريبا وحدث خلاف ما بين السلطان والأمراء القوا القبض عليه نتيجة لهذا الخلاف وحبسوه وسلطنوا بعده أخيه الصالح صلاح الدين الذي تغيروا عليه أيضا وحبسوه في القلعة واعادوا السلطان الناصر حسن مره أخرى ودامت سلطنته هذه ست سنوات بأشر خلالها أمور الحكم بنفسه غير أن الأمراء ما لبثوا أن تدخلوا في شئون الحكم كما جرت عاداتهم وقبض الأمير يبلغا عليه وساقه أمراءه الذين قتلوه بدون مشاورة أحد^(١).

وينتهي بمقتله عهد أولاد الناصر محمد الذي لم ينجو فيه من القتل أو الخنق غير الملك الصالح إسماعيل الذي توفي لمرض الم به ويبدأ معنا عهد آخر وهو عهد الاحفاد.

وهؤلاء السلاطين على التتابع السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي بويق عام ٧٦٢ هـ وتم عزله وبويق لابن عمه السلطان الاشرف شعبان ابن حسين عام ٧٦٢ هـ وله من العمر عشر سنوات وما لبث أن ثارت عليه المماليك في ناحية العقبة وكادوا يفتكون به غير أنه دخل القاهرة متخفيا فدلّت عليه امرأة وقبض عليه وسجن وخنق في سجنه بعد أن قضى في السلطنة أربعة عشر عاما وهي أطول مدة مكث فيها سلطان من احفاد السلطان الناصر محمد.

وبويق بعده لابنه المنصور على بن شعبان وتولى في غيبة أبيه وعمره سبع سنوات وكان الأمير اينك البدري صاحب المشورة في دولته وصارت في عهده فتن كثيرة حتى مرض هو ومات في مرضه ، ليتولى مكانه الصالح أمير حاج بن شعبان وهو أخو المنصور على وعمره في الولاية عشر سنوات

(١) ابن اياس: المصدر السابق: ج ١ القسم ١ ص ٥٧٧، ٥٨٧

بوع ٨٧٣هـ وكان اتابكة الأمير برقوق بن انص والذى على يديه زال ملك البحرية ليبدأ المماليك عهدا جديدا وهو عهد المماليك الجراكسة البرجية .

(ب) دولة المماليك الثانية (الجراكسة) .

دولة المماليك الجراكسة ، وهى الامتداد الطبيعي لدولة المماليك الأولى والسمت العام للدولتين واحد ، فى انهم ممالك جاءوا إلينا عن طريق البيع والشراء واستطاعوا الجلوس على ودست السلطنة بما لهم من قوة حربية ونفوذ ، غير أن دولة الجراكسة تختلف فى عدة خصائص عن الدولة الأولى ولعل هذا الاختلاف هو الذى احدث الفصل ما بين الدولتين .

ويأتى من أهم هذه الخصائص عند الجراكسة العصبية التى قامت عليها دولتهم بحيث استطاعوا من خلالها القضاء على الدولة الأولى وعلى مبدأ الوراثة فى الحكم الذى ظل طوال فترة حكم أبناء الناصر محمد وأحفاده ولم يخرق هذا المبدأ إلا ثلاث مرات بتولية كتبغا والمنصور لاجين ، والظاهر بيبرس الجاشنكير، أما ماخلا ذلك فقد كان الأصل فى السلاطين من أسرة الناصر محمد ولعل الأهمية الثانية تكمن فيما أحدثه تولى الجراكسة فى نفوس المماليك من الأجناس الأخرى وخاصة الترك ومدى ما وصلت إليه كراهية الترك لحكمهم فضلا عن الثورات التى حدثت فى أواخر العهد الجركسى من المماليك الحلبان .

ولعل السلطان الناصر محمد أحس بما يصبوا إليه الجراكسة من تكتل وتعصب فاحدث بهم ما أحدثه خلال ولايته الثالثة من تضيق عليهم وبالرغم من ذلك فقد استطاع الجراكسة من القيام على يد السلطان الظاهر برقوق مؤسس الدولة والذى لم يأمن شر المماليك الأتراك الذين تألبوا على حكمه

وظل فترة حتى استطاع أن يتغلب عليهم أثناء عودته الثانية للحكم .
وهذا فضلا عن بعض التغييرات في النظم والإدارة التي لسنا بصدد
الحديث عنها في هذا البحث .

قد كان هناك بعض مظاهر الإنفاق في عناصر شتى كونت الخط
العام الذى سارت عليه الدولتين ولعل أهمها الفتن والاضطرابات وثورات
الآراء المماليك على السلاطين وما يترتب على ذلك من اضطراب وتدهور
فى أمور الحكم مما يؤثر تأثيرا مباشرا على المجتمع والرعية وإن كانت هذه
الفتن قد ظهرت بشكل أوضح من خلال عصر دولة المماليك الجراكسة ليس
فقط طلبا لتولى كرسى العرش مع خلافات الأمراء المماليك لبعضهم البعض
ولعلنا نتبع مراحل تدرج السلطة المملوكية الجركسية سنجد أن مؤسسها
السلطان الظاهر برقوق استطاع التغلب على العناصر المناوئة له فى الحكم
ليترك من بعده السلطنة لابنائه وبالرغم من كونه كان منشقا على مبدأ الوراثة
فى العرش فقد أوصى لابنائه الناصر فرج بن برقوق ثم لأخويه عبد العزيز
وإبراهيم من بعده لتظهر لنا من جديد مشكلة صراع السلطنة وكيفية التخلص
من الشركاء فى الحكم .

وفى سياق هذا الحديث سوف نذكر السلاطين الذين تعرضوا للفتن
والانقلابات وأصابهم القتل أو الخنق نتيجة لها .

جاءنا فى أحداث ٨٠١ هـ / ١٣٠٩٦ جلوس السلطان الناصر زين
الدين فرج بن برقوق أشرنا الى تملكه بعهد من أبيه وهو ثان ملوك الجراكسة
بمصر ولم تلبث أن سنحت الفرصة لأمراء المماليك فى الخروج على الناصر
فرج وكان فى العاشرة من عمره فقامت ضده عدة ثورات أهمها امتناع الأمير
سودون أمير اخور عن حضور الموكب السلطانى وثورة الأمير تتم الحسنى

نائب السلطنة بالشام^(١)، وكان من أعضاء مجلس الوصاية الذي أقره السلطان برقوق على أولاده وانضم إليه جملة مماليك في صفد وحماه فضلا عن بعض العربان والتركمان في مصر والشام ، وفي نفس العام خرج عليه الأمير يشبك وهو عضو مجلس الوصاية أيضا.

ولعل السمة الظاهرة لعهد فرج هو انقسام مماليك أبيه بينه وبين اخويه ابراهيم وعبد العزيز فاحتد الصراع بينهما واستطاع الأمير بيبرس الداودار الانابك وكان وصيا على الأمير عبد العزيز أن يبايع للأمير عبد العزيز ومن جراء هذه الفتنة واثارة الاحداث اختفى السلطان فرج .

ذلك الأمر الذي أعطى الفرصة للأمير بيبرس أن يتم سلطنة السلطان عبد العزيز في عام ٨٠٨ هـ ولم يبلغ من العمر عشر سنوات^(٢)، غير أن الناصر فرج بعدما قويت شوكة مماليكه وصاروا قادرين على حمايته فبرز من مكمته "وملك القلعة بأيسر شئ" وجلس على سرير الملك وقبض على الأمير بيبرس وأرسله الى سجن الاسكندرية وقبض على أخيه عبد العزيز وامر بانزالة بيت الحريم متحفظ عليه ودام حكمه في تلك المرة سبع سنوات اتصفت بالاضطرابات ولعل أسوأ ما فعله بها حتى يستقر له زمام الأمور في السلطنة ولا يناوئه احد في كرسى القلعة تخلصه من اخويه عبد العزيز و ابراهيم بالقتل بعد أن حبسهما^(٣)، وهكذا أصبح السلطان يقوى على عصبية الدم ويراق دم الاخوة رغبة في خلوص كرسى السلطنة وانتهى عهد السلطان فرج بن برقوق بعد أن تحالف عليه الأمير تورز نائب الشام والامير شيخ نائب طرابلس واعلنا ثورة في بلاد الشام فاعد السلطان عدته للقضاء عليها فمضى بهزيمة منكرة بالقرب من دمشق قبض خلالها على السلطان ليقتل قتله

شنيعة حيث ارسلوا له أربعة من الفدوية "الحشاشين"^(٧) . في سجن دمشق فاعتركوه بالخناجر وكان مقتله لقاء ما اقترفت يذاه من قتل أخويه وانتهى حكم أبناء السلطان الظاهر برقوق .

ولا نستطيع أن نخفل هنا واقعة حدثت في العصر المماليكي الثاني وهو ما أشار إليه المؤرخون من قتل السلطان المؤيد شيخ المحمودى لابنه ابراهيم الذى كان ارسله الى تأديب القبائل التركمانية فى آسيا الوسطى^(٨) . وأبلى الأمير ابراهيم بلاءا حسنا واخضع قبائل دلغادر ورمضان وجعلهم صاغرين لحكم دولة المماليك ، ودعوا فى الخطبة للمؤيد شيخ وسكت السكة باسمه فى تلك المناطق ثم كان عودة الحميد الى القاهرة التى قابلته فى ازهى حللها فرحة بالنصر الذى أحرزه على هذه القبائل وهتفت الناس والعامه باسمه فى الشوارع فثارت حفيزة أبيه عليه خوفا من تزايد شعبيته والتفاف الناس حوله فاغرى به " وكان يتمنى موته ويعد الامراء بمواعيد اذا وقع ذلك " ورتب بعض خواص السلطان ذلك وخاصة بعض الحائقين وزينوا ذلك لوالده ودسوا السم لولده ليموت به أو بغيره^(٩) . فاذن لبعضهم بذلك ونفذوا ما ارادوا ولمّا لم يقتل من أول سم دس له السم ثانية حتى مات متأثرا به غير أن أبيه ادرك بشاعة ما احدثه واشتد به الجزع على موته ويذكر لنا ابن حجر أنه توفي بعده بما لا يقل عن تسعة أشهر "كدأب من قتل أباه أو ابنه على الملك قبله عادة مستقرة وطريقة مستقرا"^(١٠) . حتى وان كان فى نفس المؤيد شيخ

(١) ابن اياس : المصدر السابق ج١ قسم ٢ ص ٨١٥،

(٢) (ابن داود الصيدفي : نزاه النفوس والابدان ج ٢ ص ٤٤٠،

ابن تغردى يردى: المنهل الصافى ج١ ص ٧٨

(٣) (ابن حجر العسقلانى: ابناء الغمر ج ٧ ص ٣٨٠

(٤) (ابناء الغمر ج ٧ ص ٣٨١

المحمودى شئ من بعض افعال ولده كما يذكر لنا المؤرخين فلا يصل الأمر إلى حد قتل فلذة الكبد ، ومات بعدها المؤيد شيخ متأثراً بمرض ألم به ، وبعد موت المؤيد شيخ ترك البعضة لأبنة أحمد الذى لم يبلغ من العمر غير سنة واحدة وثمانية شهور^(١١) . واخذ الوصاية عليه الأمير ططر بعد أن قبض على الامير الطنبغا الذى ترك له المؤيد الوصاية عليه ولكى يقر الوصاية ويستطيع التصرف فى شئون السلطنة تزوج بوالدة السلطان وبعدها استقر له الامر والنهى خلع السلطان الطفل وحبسه فى ثغر الاسكندرية هو وأخوة ووالدته بعد أن طلقها ومات السلطان أحمد بن المؤيد شيخ وأخيه فى الطاعون عام ٨٣٣هـ / ^(١٢) . واعلن ططر نفسه سلطانا ولقب بالملك الظاهر إلى الفتح غير أن سلطانه لم يدم كثيرا فما لبث أن مرض واختلف فى أمر مرضه على أن البعض يذكر أن مطلقته قد دست عليه السم اثناء مرضه بالقولنج انتقاما لها ولولدها^(١٣) . هذا وبقي لنا ثلاثة من سلاطين المماليك الجراكسة قتلوا نتيجة الصراع على السلطة ورغبة فى الوصول إلى كرسي الحكم أولهم السلطان الناصر محمد بن قايىباى والذى تقلد السلطنة بعد موت الأشرف قايىباى وقد حدثت فى عهده فتنة عظيمة تزعمها الامير قانصوه خمسمائه والذى قويت شوكته فخلع الأمراء والخليفة السلطان الناصر وقلدوا قانصوه خمسمائه وتلقب بالملك الأشرف ولم يرضى المماليك اتباع الناصر محمد

(٥) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج١ ص٣١٦

(١) ابن تغرى بردى : المنهل ج ١ ص ٣١٦

الصيدقى: المصدر السابق ج٢ ص ٤٧٨

(٢) العيى : عقد الجمان حوادث وتراجم ص١٥٥ تحقيق عبدالرازق لقرموط

ابن تغرى بردى المصدر السابق ٠ ج٦ ص ٤٠٢

ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٤

بذلك وكان قد تزعم الدفاع عنه خاله قانصوه وحارب قانصوه خمسائه فاستولى خال السلطان على الزردخانه واخرج ما بها من سلاح وفرقها على المماليك الجلبان وقويت شوكة خال السلطان حتى أفسد المماليك الجلبان فساداً عظيماً في القاهرة واشتدت على الناس وطأتهم وانتصر الملك الناصر محمد بن قاييتباي على قانصوه خمسائه ، وأعيد إلي العرش وتلقب هذه المرة بالاشرف^(١٤) . وبقي الناصر محمد في الملك وحدثت في عهده فتن كثيرة وخاصة من المماليك الجلبان الذي كان منساقاً إليهم نتيجة لضعف شخصيته وبالرغم من المساوئ الكثيرة التي امت بالرعية في مدة حكم الناصر محمد وانصياعه التام للمماليك الجلبان جعلت هناك وحشة ما بينه وبين ممالك ابيه فلم يطق الأمراء صبراً على هذا التعسف الذي أحدثه الجلبان وانقض خاله قانصوه من حوله - وكان عضده وساعده الأيمن - واصبح يبيت النية على تولي منصب السلطنة وأخذ الأمراء يوسعون في الهوة ما بين السلطان وخاله حتى اشترك قانصوه خال السلطان مع الأمراء في مقداره لقتل السلطان والتخلص منه وذلك في عام ٩٠٢ هـ حيث خرج السلطان الى ناحية الطالبية من بر الجيزة ، وكان بها الامير طومان باي الدودار الثاني بقصد التوجه الى البحيرة ، فعزم الامير عليه حتى يستروح عنده ساعة واخرج اليه " بجفنه فيها لبن فاخر " فوقف السلطان وهو راكب على فرسه وأخذ الملحقة وأكل من اللبن وطومان باي ممسكا بلجام فرسه ، فإذا جماعة من المماليك تخرج عليه في كمين من خمسين مملوكاً وقتلوه شر قتله وضربوا رقبتة حتى انفصلت عن جسمانه الا قليلاً ، ولم يكتفوا بقتله بل قتلوا معه اولاد عمه جانم واخيه جاني بك واخذة شيخ الطالبية بعد أن طرحت جسته ارضاً وادخلوه المسجد وفي

الصباح ارسل خاله ثلاثة نعوس الى الطليبة ودفن في تربة الاشرف قايتباى، وتسلطن من بعده خاله قانصوه وتلقب بالملك الظاهر^(١٥)، وهكذا تخلص الخال من ابن اخته وجلس بعده على زمام الحكم وفى ودست السلطنة ليجد من يطمع فى السلطنة ليقعن عليه مضجعه منذ فترة وجيزة خرج عليه الامراء جان بلاط والامير طومان باى، ووقعت بينهم موقعة كبيرة اختفى على اثرها الظاهر قانصوه ليتقلد مقاليد السلطنة الاشرف جان بلاط ودير له مملكته الامير طومان باى الدودار ، وأهم ما حدث فى عهد جان بلاط خروج وعصيان نواب الشام الامير دولات باى نائب حلب والامير توحدوه نائب الشام واخرج الى الشام الامير طومان باى الذى كان يرغب هو بدوره فى السلطنة وقيل أن هذه الفتن كانت من تدبيره، فلما وصل الى الشام انضمت الي القوات الثائرة واعلن نفسه سلطانا هناك ثم عاد وزحف على القاهرة فدخل السلطان وجميع ممالكه وتحصنوا بالقلعة واسر بعد المعركة مع الثائرين وسجن بالاسكندرية ثم مات مخنوقا في عام ٩٠٦ هـ وترك باقى البلاد مفتوحة فدخلوها وحاصروا القلعة وتولى بعد مقاليد الحكم العادل طومان باى^(١٦).

وكان العادل طومان باى هو الشخصية البارزة التى استطاعت أن تحرك الامور تحريكا خفيا ومنذ عهد السلطان الناصر محمد فقد كان صاحب الاثر الفاعل فى تغلب خاله عليه وكان المرتب لدولة الظاهر قانصوه والسبب فى عزلة، غير انه لم يستطيع صراحة النصيح عما يداخله من تولى السلطنة

(١) ابن اياس : المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٢ ، ٤٠٣

(٢) المقر بزي : المواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٩٧

خوفا من الامير جان بلاط شريكة في المؤامرات وانايبك العساكر انذاك فاراد أولا التخلص من جان بلاط فاجلسه على كرسى السلطة ثم دبر المؤامرات التي استطاعت أن تسقط السلطان الاشرف جان بلاط تدبيره هي فاوهم السلطان خروجه للقضاء على الفتن في الشام ليعود سلطانا على البلاد وتكون نهاية السلطان على يديه ويتم خنقه.^(١٧)

غير أن الامور لم تصفو للعدل طومان باى فقد كانت اطماع الامير قوصروه معروفة، فقد سبق وعلن نفسه سلطانا في دمشق عندما زحف عليه طومان باى لاضعاعه فحاول التخلص منه فبادر بالقبض عليه وخنقه وهذا ايسر ما كان يمكن تحقيقه في ذلك العصر الذي اصبح الغدر والقتل والنهب والسلب اهم سماته ولذلك خشي باقى الامراء مما لحق باتابك العساكر قوصروه فحاولوا التخلص من العدل طومان باى فعجلوا بالخروج عليه وقتله ولم يدم في السلطنة غير ثلاث شهور فقط.

وبالنظر في اخر حكم دولة المماليك ومنذ ولاية السلطان الناصر محمد بن قايتباى حتى تولية الاشرف قانصوه الغورى فقد تعاقب على حكم دولة سلاطين المماليك الجراكسة خمس سلاطين في ست سنوات ، ولعل هذا التخبط السياسى كان دليلا على الضعف الذى اصبح فيه هؤلاء السلاطين حيث لايشغل همهم الا التفكير في كرسى السلطة والصراع عليه وتركوا مشاكل الحكم وهمومه جانبا فتوالى عليهم الاخطار الخارجية والتي حاول ادراكها السلطان الغورى منذ وجد نفسه امام صعوبات كثيرة سياسية وخارجية وداخلية واقتصادية ، تنسحب كلها من فساد امور الحكم التفتات السلاطين الى حروبهم الداخلية مما سار بالبلاد الى التدهور والضعف الذى

ادت إليه كثرة الثورات والاضطرابات والصراع على السلطة.

الثورات والفتن أثرها على المجتمع :

المتتبع لتاريخ دولة المماليك على عهد بها ، وكما أشرنا نجد أن السمة الظاهرة لهذا التدهور كثرة الفتن والاضطرابات التي كان يحدثها الامراء لاسباب عدة ، اما لنصرة سلطان قادم على سلطان مضى ظله أو ثورة لتأخر رواتب المماليك وغيرها من أمورهم المالية كزيادة الاقطاعات ، أو النزاع ما بين أمير مملوكي كبير وآخر على شغل منصب كبير في الدولة مع وجود سلطان ضعيف لا يقوى على فض هذه المنازعات بين الامراء ، هذا ولقد ذكرنا من أمثلة هذه الفتن والصراعات كثير في مجال الحديث عن صراع السلطة وتولى كرسى العرش ودور امراء المماليك فيها .

وطوال تاريخ عصر سلاطين المماليك نجد هذه الثورات والفتن والقلاقل تظهر لنا بكثرة حتى لو اردنا حصرها لجاءت في سفر تاريخي ضخم غير أن سياق حديثنا نحاول فيه فقطلقاء الضوء على أهم هذه الفتن التي ثارت في العهدين المملوكيين وكان لها تأثير كبير على المجتمع الاسلامي داخل مصر والشام وعلى الرعية والاهلين، ولا غرو اذا قلنا أن كل هذه الفتن كانت تأتي بتأثير سلبي على المجتمع فلا يضار إلا الاهلين ، اما الامراء فامرهم الى اثنين إما منتصر وإما منهزم ، وهذا عهدهم دائما النزوع الى الشغب والفتن ، ومن خلال هذه السطور على سبيل المثال لا الحصر نذكر أهم احداث الفتن التي مر بها عصر دولة المماليك واثرها على المجتمع الاسلامي في مصر والشام" ولعل أول ما تعرض له هو ما جاءنا في احداث عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م من استخلاص الملك المعز ايبك الحكم فقتل منافسه

فارس الدين اقطاعى الجمدار الصالحى^(١٨)، وكان هذا الفارس قد قويت شوكته واستفحل امره وانضم إليه الامراء البحرية وصار اقطاعى يركب بين ممالكه بالشاويش "وهو علامة من علامات ركوب السلطان" وكان أصحابه يسمونه فيما بينهم بالملك الجواد ، وما زال المعز يتلطف به حتى تطاول وطلب اقطاعه ثغر الاسكندرية^(١٩)، ويذكر لنا ابن كثير كيف أن هذا الامير كان يسير سيرة غير حسنة فى الناس والرعية فيذكر فى حوادث عام ٦٥٢هـ خبر قدوم الفارس اقطاعى من الصعيد "بعد ما نهب أموال المسلمين واسر بعضهم ومعه جماعة من البحرية المفسدين فى الارض وقد بغوا وطمعوا وتجبروا ولا يلتفتون الى الملك المعز ايبك"^(٢٠)، فسياق هذا الخبر الذى جاءنا من مصادر متعددة. يدلنا على ما كانت عليه رغبة السلطان المعز ايبك التركمانى فى التخلص من غريمه ، الذى قويت شوكته ليس فقط على السلطان ولكن على الرعية فقد حصل تجبره عليهم مذاه واصبح ممالكه يسومونهم العذاب ذلك وضح لنا من نص ابن كثير والذى ختمه بقوله (فاستراح المسلمون من شره " فلولاً ادراك المعز ايبك لمدى خطر هذا الفارس وتداركه له - وان كانت الوسيلة غير شريفة - لاحتدم الصراع بينهما ولاقت الرعية من جراء ذلك الويلات والثبور .

وكذلك ورد فى احداث عام ٧٤٢ هـ وفى سلطنة السلطان المنصور أبو بكر بن الملك الناصر ، والفتن الكثيرة التى حدثت ما بين الامير بشتك

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٧ ص ١٠

بيبرس الداودار : التحفة الملوكية ص ٣٥

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١١

النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ص ٤٣١

(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ١٦٦

الناصرى وبن الامير قوصون الناصرى مدبر المملكة ، انتهت بالقبض على
بشتك الناصرى، ثم تتابعت الاحداث ونظرا لما كان عليه السلطان من لهو
وانغماس فى الملذات وانصراف عن أمور الحكم وهى أمور لم يعهدها
الامراء المماليك فى السلاطين من قبله مما ادى الى حنق الامراء عليه
وخاصة الامير قوصون مدبر السلطنة وصاحب الحل والعقد فيها فقامت انذاك
فتنة عظيمة واستطاع قوصون أن يقبض على الامراء المواليين للسلطان
واودعهم خزانه شمائل وكان قد سير السلطان واخوته السبعة الى مراكز فى
النيل وارسلهم الى قوص، ولم يترك فى القلعة إلا الامير كجك والذى عقد
العزم على سلطنته ، ويصف لنا ابن تغرى بردى هذه الاحداث بقوله " وكثر
البكاء والعيول بالقاهرة فكان هذا اليوم من اشنع الأيام ^(١) .

هذا وبعد اعتلاء السلطان كجك السلطنة واصبح الامير قوصون
بجوار تديره السلطنة انعم عليه السلطان بنيابة السلطنة فحدث بينه وبين
المماليك السلطانية فتنة كبيرة أراد منها التخلص من الامير قوصون الاستبداد
بأمور السلطان واخذ يعاملهم كأنهم مماليكه لا ممالك السلطان وقد وصلت
الفتن مداها عندما اشترك العامة مع المماليك السلطانية وامتلا ميدان الرميثة
وصاح الناس بالمماليك السلطانية " يا نا حربنا نحن معكم " فاشاروا عليهم
بالتوجه الى بيت قوصون فتوجهوا اليه ونهبوه وكسروا ابوابه فعلم قوصون
فعاد بمن معه حتى يادب العامة فحماهم المماليك السلطانية الذين حصرهم
قوصون فى القلعة وارشقوا قوصون ومماليكه بالنشاب، وبدأت العامة فى
نهب الاصطبل ، فقتل قوصون جماعة كبيرة من العامة وقبض على اخرين

(١) النجوم الزاهرة: ج ١٠ ص ٢٤

وأُسفر أمر هذه الفتنة على القبض على مثيري الفتن من المماليك السلطانية ،
وقتل قوصون من كان على خزائن السلاح وأمر بتسمير عدة من العوام " فسمر منهم تسعة على باب زويله " وأخذ مماليكه يقبضون على العوام
واحصى عدد القتلى من العوام والمماليك ما يقرب من ثمانية وخمسين رجلاً^(٢)

هذا وقد اقترف المماليك اعمال العنف حتى يتخلصوا من سيطرة
الامير قوصون واشترك معهم العامة لاحساسهم بالظلم الذى وجدوه فى ظلال
حكمه، وانشغال السلطان عن أمور الرعية مما أدى الى ارتباك الأموال
واضطرابها فى شوارع واحياء القاهرة .

ولم يمضى وقت طويل حتى انتهت دولة قوصون فجاءه امراء الشام
يريدون خلع السلطان وتولية أخيه الناصر أحمد ولعلنا نلاحظ من كل ذلك أن
الاصياء أو مدبري السلطنة كانت لهم الكلمة العليا فيها ولا حول ولا قوة
للسلطان .

ويذكر لنا ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٧٤٦ هـ / مدى ما وصل
إليه أمر السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد من انشغاله باللهو والخروج
الى النزهة والتريض فى خاتناه سرياقوس وانغماسه فى المجون ولعب الكرة
مما فسدت معه مصالح الناس وامور البلاد واخذ المماليك يعيشون فى الارض
فسادا ، وتمردوا على حكم السلطان اللاهى " واخذوا 'حرم الناس' وقطعوا
الطريق على العامة وابن السبيل وكثرت الفتن والفجور ، وعندما وصلت
شكاية الناس الى السلطان لم يعبا بها بل زاد فى مجونة وقال " خلو كل احد

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٣ ص ٣٦ : ٤٣ .

يعمل ما يريد " (٢١) . وانتشر مع هذا السلطان كثير من أمور اللهو وفشت الفاحشة والفجور ، وهذا بعض لما تعرضت له مصر خلال عهد انحلال ابناء الناصر محمد واحفاده والذين عاشوا منغمسين في لهوهم ونسوا ما كان عليه اباائهم واجدادهم من حرب وجهاد واخراج للفرنجة والصليبيين من بلاد الاسلام .

هذا وخلال عهد سلاطين الجراكسة كثرت الفتن واضطربت الاحوال اكثر ما كانت عليه فقد شجعت طريقة الحكم وسهولة الوصول الى كرسي السلطنة وهوان السلطان على الامراء المماليك الأقوياء فمن اراد منهم الخروج عليه ورفع راية العصيان يفعل ذلك بسهولة ولقد ساعدهم في ذلك العصبية التي كانت سمة ظاهرة لحكم الجراكسة فكل أمير له خلصائه واتباعه الذي يقوى بهم ويناطح الامراء والسلاطين وخاصة اذا ما عرضت حاجة أمير لدى أمير اخز ولعل أهم ما كان من ثورات على العهد الجركسي ما أحدثه المماليك الجلبان وهؤلاء هم الذين سعوا في الارض فسادا بطول البلاد وعرضها ، والمتضرر الوحيد من هذا البلاد هم الرعية وعامة الناس .

واذا نظرنا الى الفتن والقلقل التي اثيرت في عصر دولتي المماليك لوجدنا أن اسبابها لاتأتى لمصلحة العامة أو لشعور وطني يحس به المماليك تجاه مصر ، وانما تأتي لمصلحة المماليك الشخصية في مجدهم الشخصي والوصول الى ما يتمنوه من الثراء والسلطنة في اثناء تواجدهم داخل الكيان السياسي في السلطنة .

وأیضا لعل تحكم مدبری السلطنة والاصياء على السلاطين الاطفال

الذين لم تكتمل فيهم شروط الولاية ولا انعقادها جعل هؤلاء يرغبون في الانفراد بالامر دون غيرهم ، ولعل غيرهم كان يطمح أيضا للوصول إلى مرتبتهم .

وكل هذه الاحداث كانت تتسحب على طبقة العامة الاهلين واصبح كثير من الظلم والجور ينال هؤلاء الذين هم احق بالرعاية والعناية من سلاطينهم كما امرنا شرع الله الحنيف العمل بذلك.

ولقد ساق لنا ابن اياس خبر أن كان به بعض من العجب إلا أن كله ألم فهو إن نم على شئ إنما ينم على مدى الفوضى والعسف اللذان غلغا حكم دولة المماليك وعن فقدان الامن والنظام فذاكرته فذكر انه اتفق بعض الصبية في اثناء لعبهم على تنصيب احدهم سلطانا وتنصيب آخر الى القاهرة وامروا الا يخرج أحد من منزلة بعد العشاء واخذوا يمرحون ويلعبون فخطف بعضهم عمامة اخر فذهب بشكواه الى ملك الامراء فامر بالقبض عليه واحضاره ثم رسم لوالى القاهرة أن يخوزقه فدقوا له عصا فى الارض واقعدوه عليها غصبا حتى مات من وقته^(٢٢).

ولعل هذا الحادث يبرهن على مدى ما وصل إليه عنف المماليك فى وسائل التعذيب التى كان يقاس منها المماليك أنفسهم ولعامّة الشعب وقد استعمل المماليك فى التعذيب وسائل كثيرة منها التوسيط وهو قسم المحكوم عليه نصفين من اسفل السرّه حتى تخرج امعائه والتسمير وهو تعرية المحكوم عليه من الثياب ثم يشد على خشبتين مثل الصليب وتدق اعضاء فى الخشب بواسطة مسامير غلاظ^(٢٣) . وغيرها من انواع التعذيب الاخرى التى قاساها

(١) بدائع الزهور : ج٢ - ص٢٨٦ .

(٢) (البداية والنهاية : ج٧ ص١٦٦)

الناس نتيجة لكثرة الفتن والثورات التي راح ضحيتها كثير من العامة والممالك واريقت الدماء في نزاعاتهم على السلطة وكان دائما ما يكون البقاء للاقوى والذي يستطيع السيطرة على يد هؤلاء السلاطين الاقوياء ظهرت لنا الدولة المملوكية القوية التي اوقفت مد التتار واخرجت الصليبيين ودقت اعناقهم وفتحت قبرس من بقايا اسره لوزيجان وبحرت الاساطيل لفتح ردوس لدحر قوة الفرسان الاستبارية ، هؤلاء السلاطين الممالك الذين خلفوا لنا عمارة خالدة مازالت شاهدة عيان على اعمالهم، هذه الدولة التي اختلفت التيارات والاهواء فيها فكان أمرها إلى زوال بمجئ الاتراك العثمانيين لتسقط القاهرة في ايديهم بعد دفاع اخر سلاطين الممالك عنها وهو الاشرف طومان باى وكيف كان له أن يللم اشلاء دولة كانت واخرج اخر نفس فيه وهو يدافع عن دولة الممالك البائدة.

قائمة المصادر والمراجع

- ١- ابن الاثير : عز الدين - بن عبدالكريم بن الاثير الجزرى ت ٦٣٠ هـ
الكامل فى التاريخ بيروت ١٩٧٧
- ٢- ابن أياس : محمد بن احمد بن اياس الحنفى
بدائع الزهور فى وقائع الدهور • جميع اجزاءه •
تحقيق محمد مصطفى •
- ٣- ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ
النجوم الزاهرة • الاجزاء ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ نسخ مصورة
من مطبعة دار الكتب •
- ٤- ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر • ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٩ م
تذكرة النبية فى ايام المنصور وبنية الاجزاء •
- ٥- ابن حجر العسقلانى : شيخ الاسلام شهاب الدين ابى الفضل احمد بن
حجر ت ٨٥٢ هـ •
ابناء العمر بانباء العمر • الاجزاء الاول الخامس السابع •
دار الكتب العلمية بيروت •
- ٦- ابن الجوزى (سيط) يوسف بن قزغلو •
مرآة الزمان ج ٢ القاهرة • د • ت •
- ٧- ابن داود الصيرفى : الخطيب الجوهري على ابن داود
نزهة النفوس والايدان فى تواريخ اهل الزمان الاجزاء ٢، ٣، ٤

تحقيق حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١

٨- ابن شاهين الملطى :عبدالباسط بن خليل ٨٤٤ - ٩٢٠ هـ

نزهة الاساطين فيمن ولى مصر من السلاطين

مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٩٧٨ .

٩- ابن العماد : ابي الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى ت ١٠٩٨ هـ

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب جميع - اجزاء دار

الكتب العلمية بيروت لبنان .

١٠- ابن العميد : المكين جرجس .

اخبار الايوبيين . مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د . ت

١١- ابو الفدا : عماد الدين اسماعيل ابي الفدا .

المختصر فى اخبار البشر القاعدة مكتبة الثنى ج٢

ابن كثير : عماد الدين ابي الفدا اسماعيل ت ٧٧٤ هـ

البداية والنهاية . ج٧ دار الفكر العربى

١٢- الاسحاق : محمد بن عبدالمعطى ابن ابي الفتح احمد بن عبدالغنى .

اخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول

مصر ١- الباب الحالى . د . ت

١٣- احمد : عبدالرازق احمد .

البذل والرطلة زمن سلاطين المماليك .

١٤- الداودار : ركن الدين بيبرس المنصورى الدوردار

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة تحقيق زبيدة عطا ج ٩

المدينة المنصورة .

التحفة الملوكية في الدول التركية الدار المصرية اللبنانية
للنشر القاهرة سنة ١٩٨٧ تحقيق عبدالحميد صالح
حمدان .

١٥- سعداوى : نظير حسان .

صور ومظالم من عصر سلاطين المماليك القاهرة ١٩٦٦
مكتبة النهضة .

١٦- سليم : محمود رزق .

عصر سلاطين المماليك ونتائجه العلمى والادبى الاجزاء
٢ ، ١

١٧- السيوطى : جلال الدين عبدالرحمن السيوطى ت ٩١١ هـ .

حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . تحقيق محمد
ابو الفضل ابراهيم - دار الفكر العربى القاعدة سنة ١٩٩٨

١٨- الشرقاوى : عبدالله بن حجازى ابن ابراهيم . المعروف بالشرقاوى
تحق الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين

١٩- طرفان : ابراهيم على .

مصر فى عصر دول المماليك الجراكسة . مكتبة النهضة
المصرية القاهرة ١٩٦٠ .

٢٠- عاشور : سعيد عبدالفتاح .

العصر المماليكى فى مصر والشام . مكتبة الانجلو
المصرية . القاهرة ١٩٩٤

٢١- عبد السيد : حكم امين .

قيام دولة المماليك الثانية القاهرة د .

٢٢- العيني : محمود بن احمد بن موسى بدر الدين . ٨٥٥ هـ

عقد الجمان في تاريخ الامان

مجموعة عصر سلاطين المماليك ٤ اجزاء تحقيق محمد

محمد امين حوادث تراجم تحقيق عبدالرازق القربوط .

٢٣- مصطفى : نهلة انيس محمد .

العلاقات المصرية مع المماليك الافريقية على عهد دولة

المماليك الجراكسة .

رسالة دكتوراه غير منشورة .

٢٤- المقریزی : نقی الدین علی بن احمد . ت .

السلوك في معرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى

زيادة .

- المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار اجزاء مكتبة

الاداب .

٢٥- البنراوى : فتحية عبد الفتاح .

علم التاريخ ودراسة في مناهج البحث الاسكندرية: ١٩٩٣

٢٦- النويرى : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب . ٦٧٧ : ٧٣٣ هـ .

نهاية الارب في فنون الادب الاجزاء ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .